

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا بحث قد حبسته عن الناس - تسع سنوات - مؤامرة قبيحة ؛ وأنا غير آسف لهذا التأخير ، وإن لم يأت عني اختيارا . فلو قد قدر له أن يظهر يومئذ لكان ذلك مصانعة من الزمان لصاحبه ، أن يأذن لكتاب له بالظهور في وقت لم يكن يظهر فيه كتاب لشاب ، إلا أن يدين بالتبعية المطلقة لصاحب حول أو طول . وهذا الكتاب غريب عن ذلك المعدن ، برىء من ذلك المركب ، لأنه يتفخ في غير هذا البوق ، ولا يتصم بالتبعية ، ولا يحترم إلا العقل ، ولا يلين في الحق .

وأنا سعيد أن يظهر هذا الكتاب في زمن هو أشبه بالحد الفاصل بين عهدين من عهود البحث العلمي ، ولونين من ألوان الاستقراء والنظر ؛ وفي هذه الأيام التي تعتبر ، دون ريب ، استهلال عهد من عهود الثورات في حياة الأمم ؛ ولست أقصد إلى الثورات الهدامة الدامية ، ولكننا أقصد إلى هذه الانقلابات التي تصيب حياة الناس بعد الحروب الرهيبة ، التي تدفع فيها الانسانية جمعا من دمها ومن نفسها ، وتحمل فيها من أجسام الآلام ما يبعث بنفوس أبنائها إلى أمل خلاب في تحقيق مثل توفر لها من السعادة ما يعوض عليها بعض ما حلت من شر في الحروب ، وما لقيت من بلاء بها .

في مثل هذه الثورات المحتاجة ، التي تهز النفس إلى أعماق قراراتها ، وتمتد إلى أبعد أصولها ، لا تجدد النفوس صورتها في أقلام أصحاب المدرسة القديمة ، ولا في تفكيرهم ، ولا في نظرتهم إلى الأشياء ؛ ولكنها في حاجة إلى نفوس تتدفق شبابا وعزما ، وعقول تفيض قوة ؛ وهي يومئذ أكثر طموحا إلى غير ذلك اللون العاجز من الثروة الواهنة القبيحة التي لا تملأ فيها فراغا ، ولا ترضى لها حسا . وهذا الكتاب ، وإن يكن قديم الموضوع ، إلا أنه أشبه بهذه الأيام الجبارة النائرة ، في طريقته ومنهجه ، وفي وسيلته العلمية وأداته ، وفي ترتيبه وتبويبه .

فلم أتبع فيه نهجا ولا طريقة اتبعها غيرى فى دراسة شاعر . وإنما أملى الطريقة فيه نوع الموضوع ، وأنشعابات البحث ، وما كان يحد بين لحظة وأخرى تبعاً لنمو الدراسة وموجباتها . ولقد خرج ، لهذا الأمر ، بعيداً عن أن يكون محاكاة لعمل آخر من نوعه ، أو نقلاً لمنهج شرقى أو غربى .

وقد كنت دائماً صادق الاقتناع بأن تناول المسائل ، ودراستها على أساس طرائق متحجرة ، تطبق الطريقة منها على النوع الأدبى بأكمله ، خطأ وإسفاف معاً . خطأ لأن أفراد النوع الواحد تتفارق فيما بينها تفارقاً يقتضيه مجرد وجود هذه الأفراد ، فإن الفرد لا يتكرر وجوده بذاته وصفاته فى الطبيعة . وعلى ذلك فإن مجرد تعدد أفراد النوع الواحد داعية إلى اختلاف الطرائق والمنهج فى دراساتها . وإسفاف ، لأن فيه ما فيه من وقوف بدراسة النوع الواحد عند ظاهرة عقلية واحدة ، يأخذها اللاحق عن السابق ، كما يأخذ المثل الكامل . وهذا ما لم يقل به أحد ، فإنه إذا لم يكمل المتأخر المتقدم ، ويضيف إلى ما ترك جديداً ، ضاعت ثمرة وجود الأجيال وتعاقبها . وفى هذا امتحان للعقل البشرى ، ووقوف به عند منزلة بعينها لا يعدوها .

والكتاب أيضاً ثورة فى الوسيلة العلمية إلى تحقيق ما جريت وراء تحقيقه . فلم آخذ بما قيل من قبل ، على أنه مسلمات عقلية ، أو حقائق علمية مؤكدة ، وإنما عرضت كل شئ على مقاييس البحث ، وأجريت عليه معايير التحقيق ، فقبلت منه ما صححه المنطق ، ونفيت منه ما لم يصححه ، وأضفت إلى ذلك كله ما أوقفنى عليه عمل ناصب ، وجهد أفرغته لكشف غوامض موضوعى ، وأسأل الله أن أكون وفقت .

وثورة فى الترتيب ، كما سلاحظ القارئ فى تبويب الكتاب ، وترتيب موضوعاته وأبوابه . وكان من جراء هذه الثورات غضبة حاقدة مكتوبة من أحد أقطاب المدرسة القديمة ، فأخذ يحتال ما استطاع ليحول بين هذا الكتاب وبين الوصول إلى أيدي الناس . فطلب منى أصوله ، بحجة طبعها ، فسلمتها له ، فظل يحبسها عنده ثماني سنوات .

ويجزئنى أن أقول إن أبحاثى كانت فى هذه الفترة الطويلة ، نهياً مقسوماً فنشر بعضها محسوخاً مشوهاً دون إشارة إلى مصدره .

ويقع ما كتب عن أبي تمام، قبل بحثي هذا وبعده، في قسمين : قسم كتبه القدماء ، وقسم كتبه المحدثون .

فأما ما كتبه القدماء : فأحكام مركزة صادقة ، تقوم على علم صحيح ، وإلمام سليم بدقائق فن أبي تمام ومذهبه . وهم في ذلك لا يفلون ، ولا يفترطون . وليس فيما كتبوه شيء من التخليط الذى هو الطابع البين لبعض الكتابات الحديثة ، ولا أدعاء المعرفة في غير معرفة . وهم حذرون فطنون يهابون الأحكام القاطعة ، ويتوجسون الزلل . وهم مع ما اجتمع لهم من أطراف الموضوع ، لتقدمهم في الزمان ، وقربهم من عصر أبي تمام ، يعرفون للتاريخ حرمة ، ولخلق رهبة ، فلا يرمون بالظنة ، ولا يقولون إلا ما هم به يؤمنون . وهم ذوو نظر نقاد ، وحكم مصيب ، وجمع لما نتحدث نحن به اليوم مفصلين ، في موجز العبارات ، وأستقصاء لنواحي البحث ، وعلم ثابت شامل وثيق .

غير أنهم كانوا يخالفوننا في الطريقة ، والسنة ، فما تركوه لا ينطبع بطابع الوحدة ، ولا يكاد يأخذ في رأينا الحديث مظهر الموضوع الواحد ، إذ أنهم لم يكونوا يرضون عما نرضاه اليوم من إذابة التفاصيل ، وصقلها ، وسبكها ، ثم تكلف صبا في قالب واحد . وإنما هي أحكام متفرقة لا يكاد يفلت من حبالها باحث .

وأما ما كتبه المحدثون فطائفتان : طائفة كتبها المستشرقون ، وهم قوم علماء باحثون ، ولكن بعضهم لم يسلم من عصبية على الإسلام والشرق ، فهو يحاول أبدا تجريدهما من مفارهما . ولما كان أبو تمام إحدى هذه المفار ، فقد تلمس بعضهم الأعذار لإخراجها عن هذه الدائرة ، وجعله من أصل نصراني ، بل والذهاب إلى أبعد من ذلك بتحديد جنسه وعنصره . فقام كاتب مادة أبي تمام في دائرة المعارف الإسلامية يذكر ما قيل : من أن أباه كان نصرانيا يدعى «تدوس» ثم عقب عليه بهذه الكلمة الإفرنجية على هذه الصورة : "Theodose?" . وهذا الاسم يوناني ، فكأنه رمى إلى القول بأن أبا تمام من أب يوناني . وكان هذا هو الحديد الغريب في كل ما كتبه . أما ما جاء غير ذلك في حديثه عن حياة أبي تمام وفيه فليس يساوى شيئا كثيرا ، فإن تذوق اللغة ، والوقوف على أسرار نصوصها ، وروحها ليس بالأمر اليسير على غير أهلها .

وطائفة كتبها جماعة من باحثينا ، الآخذين عن المستشرقين ، وأولى بنا أن نسميهم المتعاجمين ، لا المستعجمين ، فإن للاستعجم شروطا ، أولها تمام الأداة ، واستيفاء شرائط البحث والتحقيق ،

على قياس ما عند الأعاجم من العلماء ، وقد حرم هذا الفريق الذي أشرت إليه من هذه جميعا ، وإنما تقوم ثروته على انتحال ما عند المستشرقين عن الأدب العربي أنتحالا . وعملهم الشخصي فيه إنما هو بسط النظر ومطه ، وتطويل . وجزءه ، وتشويه تناسبه ، والإفراط في تصويره . وهم أقرب إلى أن نصفهم بفئة الدقلة بالفحوى . وقد نقل هؤلاء ما قيل عن يونانية أبي تمام ، وتبحروا في الصراخ بها . وكانت نكرة إنما قصد بها إلى الدعاوة للذات ، ولفت الأنظار ، ومفاجأة من هم في كل شعب من الشعوب على استعداد للمفاجأة بالجديد ، حتى يدعى لهم العلم بما لم يعلمه غيرهم .

وكان هذا النقل عن المستشرقين في ترجمة أبي تمام ممكنا ، أما ما لم يكن نقله عن المستشرقين فهو الدراسة الفنية لآثار أبي تمام وشعره . فقاموا هم بأنفسهم عليها ، على قصور في الوسائل ، معتمدين في ذلك على النقل المباشر عن القدماء أو على الحدس والتخمين . فكانت عند بعضهم نقلا لأقرب ما قاله القدماء ، ولأكثره شيوعا وجرانا بين الناس ، وهو أنفه ما تركوا وأرخصه ، وكانت عن البعض الآخر تخليطا في إطلاق بعض مصطلحات الفنون البلاغية على غير مدلولاتها ، ومحاولة لتوليد مصطلحات جديدة لفنون وجد لها مصطلحها القديم .

واقعد جعلت كتابي هذا في ستة أبواب :

الباب الأول : دراسة مطولة لتاريخ طيء في الجاهلية والإسلام ، قصدت بها إلى أمور : أولا عقد الصلة بين ما أشتبه في نسب أبي تمام على بعض المستشرقين ونقله عنهم بعض من يدعو بدعوتهم ، وبين تاريخ طيء في الجاهلية والإسلام عقدا يمكن به إلقاء النور على كثير مما عُمي عليهم ، وأرتج في وجوههم بابه . ولم تكن السبيل إلى ذلك معبدة ، مفتوحة ، فليس أقتص من تاريخ العرب في الجاهلية شيء ، ولا يكاد يقع في تاريخ أمة من الأمم أن ترتد فيه على عظام الأمور إلى أنفه الأحداث ، بقدر ما يقع ذلك في تاريخ العرب في جاهليتهم . فكان تخليص الأسباب الأصلية الحقيقية من بين اشتجارات الحوادث المبعثرة هنا وهناك عملا شاقا مضنيا ، حاولته أملا في الإهداء إلى بصيص يلقي بعض الضوء على تلك الظلمات الرهيبة المتكاثفة ، حتى أكشف بذلك الطريق إلى ذلك الماضي البديع ؛ وقد وجدت ما يساعدني على تشخيص سياسة الفرس والروم في شبه جزيرة العرب ، وموقف طيء من الصراع الذي كان يقوم بينهما ، وتأثرها به تأثرا كان يقسمها على نفسها حتى لتحترب الحرب بين الإخوة من بطونها : الغوث وجديلة ؛ وساعدني ذلك على إدراك الصلة الوثيقة التي كانت توجد بين طيء في الجاهلية وبين الروم ، وما كان من أنبثات النصرانية

بين أبنائها، فتبين لى بذلك شيئان الأول : أن النصرانية لا تتنافى مع الطائفة، والثانى : أن إستعارة الطائيين من أسماء الروم النصارى بعضها وأستعملها، أمور لا تتنافى أيضا مع طائيتهم، فذلك ما يفعله حتى اليوم بعض أقباط الصعيد المصرى من إستعارة الأسماء الأمريكية لأبنائهم فلا يخرجون بها عن مصريتهم . ذلك إن صحت الرواية القائلة : إن أبا أبى تمام كان نصرانيا يدعى تدوس ، وصح أن أصل الكلمة هو : Theodose

وثانيها : أنى حاولت تحليل العناصر التى يتكوّن منها تاريخ طيى وأدب طيى وأستخلص هذه كلها حتى تكون معايير أعرض عليها شعر أبى تمام ، فإن تجاوزا وتجاوزا وتشابها ثبتت بها عندى طائيته .

وثالثها : إنى جعلت هذا النحو من التحقيق لأستخلص التاريخ من الأخبار المتناقلة عن الجاهلية تجربة كنت أرجو أن أنجح فيها، فأتابعها بعد ذلك فى تحقيق وجوه أخرى من وجوه هذا التاريخ نفسه .

وختمت هذا الباب بأستقراء ما جاء فى نسب أبى تمام، فعرضته على مقاييس التحقيق عرضا مستفيضا وخلصت منه إلى اعتقاد جازم بطائفة أبى تمام .

والباب الثانى : جعلته تصويرا لخلفة أبى تمام وصفاته، وللحديث على أسرته .

والباب الثالث : وهو نُقِلَ إلى الدراسة الفنية لشعر أبى تمام . وفيه زلوجت بين حياة أبى تمام وحياة شعره ؛ وقد لاقيت فى ذلك عنتا ما بعده عنت . ذلك أن شعر أبى تمام لم يُروا لنا مرتبا على حسب التاريخ، وإنما روى لنا مرتبا فى كل رواياته على حسب الحروف الهجائية ، فأضطرب لذلك من الناحية التاريخية اضطرابا رهيبا ، وأشجر أشجارا ملفزا . وكان عمادى فى ذلك كتب التاريخ والديوان : أخلص إلى الأحداث أقرأها ، وأجمع أطرافها ، وأتمثلها جميعا ، وإلى شعر أبى تمام تجمع ما تفرق من فنونه ، وما أنشعب من وجوهه ، وما أشتبه من أحداثه ، وأميز بينها جميعا ، إن يشبه هذا ذلك ، فأين الدليل ؟ ولا أزال أتحرى البرهان ، وألمس الوقائع ، وأسأل الشعر حتى تستجيب الصخرة . وإنى لأحمد الله أعمق الحمد على أن قد وفقت فى أن أستخلص من بين برائن القموض التاريخى ما أستخلصت عن حياة أبى تمام وعن حياة شعره ، وبذلك أستحال شعره عن مسمياته التقليدية من المدح ، والهجاء ، والرثاء ، إلى صور من التعبير النفسى الغنائى .

ففى هذا الباب قصة نفس أبى تمام وحياة قلبه ، وما كان يتداول عليها من مشاعر وأنفعالات . ولقد كان هذا الباب خير مناسبة لتصوير ما كان يطرا من تغيرات على شعر أبى تمام ، فأرخت فيه تطورات شعره ، ونهت على كل طور من هذه الأطوار ، ما كان يتميز به عما قبله . وما أصاب قالب شعره بزيادة أو بنقص .

والباب الرابع : وفيه عالجت المذاهب التى تداولت على الشعر العربى قديمه وحديثه ، وانقسام شعرائه إلى قدماء ومحدثين ، وفرق ما بين أولئك وهؤلاء ، وأستقرار التسمية حتى أصبحت اصطلاحا ، وشرحت "عمود الشعر" عند العرب ، وكان حتى تصنيف كتابى هذا سنة ١٩٣٦ ، عبارة غامضة شيئا ، فوقفت عليها وقد جالها الرزوقى فى مقدمة شرحه للحماسة ، فنقلت تفسيره لعمود الشعر ، وما نشر قبل ذلك ولا عرفه أحد ، وفارنت بينه وبين ما قاله الأمدى فى ذلك ، وظهر لى شىء من التشابه بين ما قالاه وبين ما قاله أرسطو فى كتاب "الخطابة" ، فنهت على ذلك ، وكانت هناك طائفة أبى تمام فتحدثت عنهم كذلك وعن أبى تمام فى هذا الباب ، وتأثر هؤلاء بأرسطو فى كتاب آخر هو "الشعر" .

والباب الخامس : وفيه وصلت بين فن أبى تمام الشعرى من حيث إنسانيته ، وما يشيع فيه من أندفاع إلى الحب ، أو أندفاع إلى الحقد ، أو بعبارة أخرى من بلوغ فى تذوق الحياة إلى الأطراف وبينت ما كان لعصره ، عصر العصبية العنصرية ، من أثر فى سهولة ذلك على النفس . وما أشبه ذلك العصر الدامى بما رأيناه فى عصر هذه الحرب الأخيرة . فالإنسان هو الإنسان فى كل زمان وفى كل مكان .

والباب السادس : وهو تكملة للدراسة الفنية لشعر أبى تمام ، بعد ما مر فى الأبواب الثلاثة السابقة من دراسة لفنه ، ففما مضى تحدثت عن التطورات التى أصابت فنه جملة ، وعن الخصائص العامة التى تتميزه كلاً ، وعن طريقته فى قصيدته ، وموجهات فنه . وفى هذا الباب أتحدث عن جزئيات منه ، من الصورة ، واللفظ ، والجملة ، والحكمة ، وتعلق فن أبى تمام بالحقيقة وما شابه ذلك .

وسيتبين قارئ هذا الكتاب أن فن أبى تمام ليس بالفن الساذج ، ولا البسيط الذى يقف عن حد نوع من الطباق بعينه ، يخلطه أبو تمام بجناس أو يلفه على استعارة . فهذه نظرة مضحكة . ولو قد فهم نقاد العرب هذا فى أبى تمام لبذوه وضحكوا منه ، ولما قصرُوا عن أن يقولوا فيه ما قاله

محدث ممن يعيشون في هذا العصر لما قرأ شيئا بهذا المعنى : ” كأن فن أبي تمام لا يزيد على لعبة الشطرنج ، حجارته معدودة ، ولكنها تنتقل إلى غير نهاية ؛ ولكن هذا إن أرضاها في الشطرنج فهو لا يرضينا في الشعر “ .

هذا وصف مجمل لما عملته وعمله سواى فى دراسة فن أبى تمام وحياته . وليعذرني القارئ في أن سقته اليه في هذه الصراحة الجافية . فإن ما لقينته أنا ، ويلقاه كثير أمثالي أدواء طاغية ، تنخر في كيان اجتماعنا الشرقى اليوم ، يلقي منها شبابنا شرا ما بعده شر ، ويقضى في كفاحها شطرا من العمر كان أولى به أن يفرغه لما هو أجدر به ، وأكرم على الإنسانية والعلم . وهى بلايا ومحن تحشد في وجوه الشباب يوم يفتح عينيه على الحياة العاملة ، فتحول بينه وبين البناء الذى كان يجب أن يقبّه إليه ، وتشغله بذاته عن العمل لخدمة وطنه وقومه ، وقد تقتل شخصيته أو تخلقه ، وقد تعصف بكيانه جملة .

إن الشباب ليس في حاجة إلى تعلم الكرامة ، ولكنه في حاجة إلى غير ذوى الأهواء لتوجيه قواه ، فإن الشباب يستمد من طبيعته الكبرياء ، ويجد في قوامه الحس بالكرامة .

والشباب لا يطلب المعونة على إيقاظ ضميره ، وتطهير نفسه وروحه ، لأنه مزاج خالص من هاتين الخلتين ؛ ولكنه يطلب المعونة على أن يجنب التلويث ، وإن يبرأ من مواطن الزلل ، في عهد من عهود العمر يكون فيه أقبل للثرات . إنه ليس شرا على شباب أمة من الأمم من أن يحكم فيه ذوى الهوى ، ومَرْضَى النفوس .

لقد كُنا طائفة من الشباب ، متخالفة الحظوظ من الثقافة ، ومن القوى ، ومن صلابة العود ، ولكننا كانت تجمع بيننا رابطة المثل الواحد ، ثم تعرضنا للامتحان في جبهة موكب الحياة فافترقنا شعبا ، فوجدت فئة منا طريقها الى السجن والاعتقال ، ووجدت فئة منا طريقها الى الفقر والفاقة ، ووجدت فئة منا طريقها الى المرونة والكياسة ، وهو طريق أدى بها الى النجس المادى والرخاء ، ووجدت فئة منا من ظروف الحياة والعمل حماية وقتها بعض شر المحنة ، وشيئا من بلية النضال .

وإني لتحضرني الآن صورهم وأشخاصهم ، وتحضرني تلك الاندفاعات العارمة التي كانت تأخذهم جميعا ، وتمتلك قلوبهم الشابة جميعا . وأرانا كأنما نحيا من جديد ، نضرب على الطريق اللاحب ، ونلقى من اليسر ومن العسر ما قسم حظا لكل طالب مثل . .

ففریق منا طلب مثله فی السیاسة ، وفریق منا طلب مثله فی الحق العلمی ، وفریق منا طلب مثله فی الخیر الاجتماعی . وضربت الأيام ضربتها ، وسار الکفاح سیرته ، وأحطنا بما يحاط به کل مصری ناشئ ، فی بيئة نظلمها إن نحن أنحينا باللوم علیها ؛ وقد انکشفت الغبرة ، وانجلى القتام ، فاذا بنا فریقان : فریق الجرْحی ، واکنهم جرحی یشدُّ أزرهم إیمان بالمثل الذی طلبوه ، لم تعمهم الشدة عن یقینهم ، ولم یحطم من نفوسهم البلاء ، تلفهم الجراح ، واکنهم لا یزالون أقوى ألف مرة من خصومهم ، وأقدر فیما اندرجوا فیه من حرارة دماء الشهاب علی سحق عدوهم الذی خیل الیه وقتنا ما أنه قد فاز بالنصر علیهم . وفریق وجد السلامة فی النزول عن مثله ، والانضواء تحت لواء من ظهرت فی صفوفهم الغلبة أول الأمر . ظن الهلاك وأن لا منجی ، فنزل عن مثله ، فهلك من حیث ظن النجاة ، وقضى فی حیث یخال السلامة .

لقد كنا بالأمس نسرى فی ظلمة خانقة ، وتحت سماء تنهار فوق رؤوسنا ، ولكن هاهى السماء تمسك عن الانهيار ، وهاهى أشعة الفجر الأولى تلوح ساحرة رطیبة فی أفق بعيد ، ولكنه على المؤمنین قریب .